بسم الله الرحمن الرحيم

الإحساس بالوطن
عند الشاعر العربي الجاهلي

م.م ضياء علي عبد الرضا
جامعة البصرة- كلية الآداب

الإهداء

إلى الغرباء في أوطانهم .....

لفقد الأحبة .....

المقدمة

الحمد لله ... والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله آل الله .

أما بعد ..

فيُعد الوطن عند العرب كياناً يحرصون كل الحرص على إثبات وجوده ، وذاتاً يعتدّون بالانتماء إليها ويلهجون في التعبير عنها . وكان همهم الأكبر وشغلهم الشاغل الذي لا يكاد يفارق وجدانهم طرفة عين وهذا ما نراه واضحاً في تعبير شعرائهم عن الأرض والتعريف بكل ما يتصل بها من قريب ومن بعيد .... حتى أصبحت هي الفكرة المهيمنة على إحساسهم ووجدانهم وجعلتهم يتخذون من المكان المفقود تقليداً سائداً متمثلاً بالوقفة الطللية .. وتأتي مواقفهم الوجدانية شعراً مُلحاً ومُعّبراً عن كل ما يتعلق بالمكان ثم يتعزز تعبيرهم ويتجلى واضحاً عند أهم شرط من شروط الانتماء وذلك في الحديث عن القبيلة التي هي عنوان كبير لوجودهم ، فالأرض والقبيلة هما بمنزلة الدار وساكنها ... ومن الاثنين يتشكل الوطن بمفهومه المادي والمعنوي ... وقد تحدث الشاعر الجاهلي عن أرضه كثيراً ورسم لوحاتٍ فنية من المشاهد الحية والصور الدقيقة المتحركة لكل ما وقعت عليه عينه وشهدته جوارحه ...وفي الوقت نفسه عّبر عن إحساسه بالقبيلة ورأى فيها ذاته ووجوده دالاً بذلك على صدق الانتماء إلى وطنه في أهم عنصرين من عناصر تكوينه اللذين كانا حاضرين في نفسه ووجدانه وكاشفين عن عمق انتمائه إلى الوطن والوفاء لكل مَن وما فيه ...

ما الوطن ؟.

يفيد المعنى اللغوي للفظة ((وطن)) الاستقرار والثبات في المكان ، ففي المعجم اللغوي العربي أن ((الوطن مربض الغنم)) [١]، ثم تطور هذا المعنى إلى أن اخذ يُطلق على كل ما له صلة بالثبات والاستقرار فشمل الدار والموضع والموقف والمنزل والمعهد والمشهد والمعرّس كما هو وارد في الشعر [٢] الجاهلي.أما المعنى الاصطلاحي للوطن فيدور حول الملازمة للشيء والسكينة إليه، فأي شيء يُحرز فيه الاكتفاء من ضرورات الحياة وشروط البقاء هو وطن ،فالمكان وحده لا يسمى وطناً إذ انه يبقى مفتقراً إلى شروط أخرى وهذه الشروط مقرونة بالمكان اقتران الشيء بذاته، فلا بد . إذن . من الاطمئنان النفسي والوجداني في الوطن والا فسوف تبقى دلالة المكان قاصرة ولذلك قيل ((الفقر في الوطن غربة والغنى في الغربة وطن)) [٣] وقيل ((لا وطن مع الظلم)) [٤]. والحديث في ما سيأتي ينصبُّ على إحساس الشاعر الجاهلي بأشيائه الملازمة له في حِلّه وترحاله والوقوف ما أمكن على آثارها في نفسه

وسلوكه ووجدانه وفنه. فكانت الأرض أول الأشياء التي يسكن إليها ثم الإنسان الذي هو سبب عمارتها وبعث الحياة فيها .

أ- الإحساس بالأرض

إن الموروث التاريخي والأدبي لحياة العرب قبل الإسلام يؤكد حب الإنسان العربي الجاهلي لأرضه وإحساسه بالانتماء إليها .ويتبين ذلك عند تأمل المواقف المأثورة والقصص المشهورة والأمثال السائرة التي بين أيدينا ففيها ما يدل دلالة واضحة على عميق حب العربي لأرضه وشديد تعلقه بها . ومن ذلك ما يُروى أن أعرابياً سُئل:

أتشتاق إلى وطنك؟ فأجاب((كيف لا اشتاق إلى رملة كنت جنين ركامها ورضيع غمامها)) [٥].

أما العلامة التي يعرفون بها صدق انتماء المرء لوطنه فتكمن في النظر إلى ((حنينه إلى أوطانه وتشوّقه إلى إخوانه وبكائه على ما مضى من زمانه)) [٦]. وإذا نظرنا إلى الشعر الجاهلي خاصة وجدنا مواقف لا حصر لها لمثل هذه المعاني وفي كلّ يبدو الشاعر متيَّماً بحب أرضه دائب الحنين إليها لا يبرح يذكرها ويذكر أيامه الخالية فيها ويحصي مواضعها موضعاً موضعاً ويقتفي آثارها اثراً اثراً. وأكثر من ذلك لقد أحب في أرضه حتى الذئاب الجائعة وأنِس صحبتها وطاب له أن يعيش قريباً منها وهي صورة متكررة في أكثر من شاهد في شعرهم فأمرؤ القيس يخاطب ذئب الصحراء وكأنه صديق له : [٧]

ووادٍ كجوف العير قفرٍ قطعته به الذئب يعوي كالخليع المعّولِ

فقلتُ له لما عوى :ان شأننا قليل الغنى ان كنت لما تموّلِ

ولعل في المقدمات الطللية التي يصرّح فيها الشعراء بذكر مواضع الديار ما يكفي شاهداً على عميق الإحساس بالأرض ويتجلى ذلك في الدقة في تحديد مواقعها وتوزيعها توزيعاً جغرافياً يدل على أمانة المشاعر في التعبير والوفاء لما يحمله الشاعر الجاهلي من صدق إحساس وحرارة عاطفة لوطنه . ولا يخفى ما في التحديد من دلالة موحية بما وراءها من مقاصد وما يصحبها من تداعيات سيأتي الحديث مفصلاً عنها . إن شاء الله. أما موقفه الوجداني فيتجلى في الحنين الدائم إلى الديار وما يتبعها من آثار مشتاقاً إلى تربها ووحشها ونباتها ورمالها ونؤيها ووهادها ووديانها حتى ينتهي به الأمر إلى ذرات التراب وحبات الرمال والحصى لا يبرح قاعداً عندها يشرح وجده ويسكب العبرات التي لا تنقضي .يقول امرؤ القيس [٨]:

ظلِلْتُ ردائي فوق رأسي قاعداً اعدّ الحصى ما تنقضي عبراتي

ويجعل ترب أرضها كأذكى عطر ونسيمها كأطيب مسك . يقول عنترة: [٩]

ارض الشربّة تُرْبها كالعنبر ونسيمها يسري بمسكٍ اذفَرِ

ويكثر الشعراء الجاهليون ذكر المواضع ذات الصلة بماضيهم من قريب وبعيد ويحرصون على الإمعان في وصف مظهرها وتحديد موقعها ولطالما تضمنت المقدمة الطللية سرداً لأسماء كثيرة للديار ربما لا يكون الشعراء وطئوها بأقدامهم، وهذا يدل على حضور الطلل في أنفسهم وانطباع صورته الدائمة في وجدانهم. يقول امرؤ القيس: [١٠]

غشيتُ ديار الحي بالبكراتِ فعارمة فبرقة العيـــراتِ

فغولٍ فحِلّيت فأكناف منعجٍ إلى عاقلٍ فالجبّ ذي الأمراتِ

ويقول زهير : [١١]

عفا من آل فاطمة الجواءُ فيُمنٌ فالقوادمُ فالحساءُ

فذو هاشٍ فميتٌ عرتينات عفتها الريح بعدك والسماءُ

فذروة فالجنابُ كأن خنس الـ نعاج الطاويات بها الملاءُ

فالشاعر الجاهلي قد صرّح بذكر هذه المواضع ولعلّه لم يسكنها ولم يترك فيها ذكريات تبعث فيه الشوق والحنين بل يذكرها لقربها من موضع وطنه . فهو إذن . عاشق يطيب له ان يذكر كل ما له صلة بمعشوقه ولهذا ينصب اهتمامه ويسهب في أسلوب العاشقين دلالةً على عشق الشيء والتعلق به وهذا البعد المكاني يمثل ظاهرة في حديث الشعراء عن أطلالهم . أما البعد الزماني فلا يقل أثراً عن البعد المكاني في وجدان الشاعر الجاهلي العاشق .فكلاهما يمثل سمة واضحة في حديثهم عن الأطلال إذ نراهم يحرصون على تحديد سنوات الفراق وكأنهم بذلك يحتسبون دقائق الزمن لِما استأثرت تلك الديار به من هوًى في أنفسهم اكسبها هذا الحضور الدائم عندهم فهيمن على عواطفهم وطغى على تفكيرهم فلا يملكون الا ان يطيلوا الوقوف والحديث والبكاء كمن احب شيئاً وشغف به فلا يريد ان يرى غير صورته أمامه في كل شيء وكل حين وكل حال .وفي تحديد مدة التحول من الديار عميق إحساس بها وشديد انتماء إليها وصدق وفاء لعهده الماضي فيها. ((فهي عند زهير عشرون حجة... وعند عبيد سنون ذواهب مرة وعام مرة أخرى وعند امرئ القيس حجج بغير حساب ويعرّفها النابغة بعد سبعة أعوام في حالتين وسنوات غير محدودة اكتملت عليها منذ ان كان يسكنها قوم لبيد وعند ربيعة ابن مقروم أتت عليها سنتان وبعد ثماني سنوات عفت آثار عميرة بن جعل وفي هذا التحديد بتنامي الفترات المؤنسة والزمن المرهق والحياة القاسية وقد تنتزع منه بعض الهموم الدموع او تضطره الذكريات إلى إسبال العبرات المتفاوتة في مقدارها تعبيراً عن عمق مأساته وحدة شعوره وهو يرقب فترات العمر تنثال ركاماً بين كل منعطف مغمور او ساحة مبتورة الأعشاب او دار مثلمة الأطراف)) [١٢]. ويتخذ الإحساس بهذه المواضع التي صارت قطعة من نفسه الذاهبة واثراً من آثار حياته الماضية معنى الثبات حين يشبهها بالوشم في ظاهر اليد فصورة الوشم هذه ((لابد ان تعكس لنا المعنى المراد من

ثبات هذا الأثر الذي يشبه ثبات الوشم ،وقد تعاود الشعراء هذه الصورة وتداولها)) .قال طرفة بن العبد :[١٣]

لخولة أطلال ببرقة ثهمَدِ تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ

ويقول طفيل الغنوي: [١٤]

لمن طلل بذي حيمٍ قديمُ يلوحُ كأن باقـيه وشومُ

فلم تكن . إذن . عاطفة الشاعر وهو يرى بلى أطلاله عاطفة آنية أو مقترنة بموقف أو مشهد يثير الإحساس ثم يخفت ويتلاشى باختفاء الموقف أو المشهد بل أنها إحساس ثابت بالفقد يعتري الشاعر العاشق في كل حين ما دام الوطن مفقوداً لا يرى له مكاناً تقرّ به عينه ولا حيّزاً يشغل حاجاته الوجدانية فاستقر هذا الإحساس حضوراً دائماً في الوجدان وملك عليه تفكيره أينما كان فكانت صورة الوشم أوفق لهذا الحضور الدائم وهي اقرب إلى صدق التشبيه وواقعيته. فالطلل غدا شيئاً مركوزاً في وجدان الشاعر وحقيقة ثابتة لا يعفّيها الزمن. قال زهير :[١٥]

قف بالديار التي لم يعفها قِدمُ بلى وغيرّها الأرواح والديمُ

أي لم يُنسِ قِدمُ الزمان حضورَها في نفسه وان اعتراها البلى بفعل الأسباب الطبيعية من ريح عاصفة وامطار متوالية وغيرها .وفي دقة تصويره لمواضع الديار وتحديد مواقعها ومدة فراقها سر آخر من أسرار إحساسه بالمكان،فمرة يتجلى في هذا التحديد الدقيق الذي يحرص فيه على التعريف به تعريفاً مفصلاً ومرة أخرى يتجلى في الإطناب في الحديث عنه وما يتصل به من قريب وبعيد ولم يكتف بذلك حتى يفصّل في عناصر ثانوية اخرى تصحب المكان كالتلال والجبال والنبات والحيوان وغيرها فتغدو الوقفة الطللية حافلة بالصور المختلفة لمظاهر الطبيعة الحية والساكنة .يقول امرؤ القيس :[١٦]

لمن طلل بين الجديـة والجبلْ محل قديمٌ طالت به الطيلْ
عفا غير مرتادٍ ومرّ كرحبٍ ومنخفض طامٍ تنكرّ واضمحلْ
وزالت صروف الدهر عنه فأصبحت على غير سكانٍ ومن سكن ارتحلْ
تنطّح بالاطلال منه مجلجل أحم إذا احومت سحائبه انسجلْ
بريحٍ وبرق لاح بين سحائبٍ ورعْد إذا ماهب هاتفه هطلْ
فأنبتت فيه من غشنضٍ وعشنصٍ ورونق رندٍ والصلندد والاسلْ
وفيه القطا والبوم وابن حبوكل وطير القطاط والبلندد والحجلْ
وعنثلة والحبثوان وبرسلٌ وفرخ فريقٍ والرّفلة والرفلْ
وفيل واذياب وابن صنوبرٍ وغنسلة فيها الخفيعان قد نَزَلْ
وهامٍ وهمهامٍ وطالع انجد ومنحبك الروفين في سيره مثلْ

فلمـــا عرفـــت الـــدار بعـــد تـــوهمي تكفكـــف دمعـــي فـــوق خـــدي وانهمـــلْ

إن تأكيد حضور الطلل في مثل هذه الصورة الغنية بالعناصر والمفعمة بمشاهد الطبيعة . الحية والساكنة والتفصيل في الحديث عنها محاولة أخرى لتثبيت مكان الأشياء الحبيبة في نفسه على الرغم مما سببته عوامل التدمير من الهدم والإبادة .((ولعل الشاعر يبدي عبر هذه الحالة تشبثاً بالمنهار كي يستديم، بيد أن اختفاء اليقين على حضور الطلل أو على الانهدام وإقناع الآخر بمثوله وتواجده حقاً لا زوراً هو الدافع الأساسي لتحديد أماكن الأطلال)) [١٧]. ومن مظاهر الإطناب في الحديث عن المكان تكرير الشاعر الأسماء أسماء المواضع . والمعروف أن ذكر الشيء مكرراً لابد من أن يحمل دلالة تتصل بنفس المتحدث ووجدانه وقد حاول بعض الباحثين أن يلتمس تفسيراً لـهذه الظاهرة فردها إلـى ((لفتات نفسية لوحظت فيها عواطف القائل ومشاعره الباطنية وأثرها في القول ذلك مثل تعليلهم لبعض الإطناب بالتكرار أن ذلك للتلذذ أو التحنن))[١٨]مثل قول الشاعر:

تمتّع من شميم عرار نجدٍ فما بعد العشية من عَرارِ
ألا يا حبذا نفحات نجدٍ وريّا روضهِ غبّ القِطارِ
وعيشكَ اذ يحلُّ القوم نجداً وانت على زمانك غير زارِ

وهذا التعليل يتجلى واضحاً في خطاب العاشقين على نحو ما نرى في قول عنترة: [١٩]

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

وتنصب العناية هنا على مكان الحبيب وإعادة ذكره مرتين وهو لا يمكن حمله إلا على وجه التلذذ والتحنن في مقام يحسن فيه التكرار الذي لا يُمَل .فالعاشق لا يريد محو رسم المحبوب ويحاول بكل وسيلة ان يصنع له حضوراً كاملاً في وجدانه فيلجأ إلى استحضار مكانه لأنه أكثر شيء يلازم الإنسان ((العاشق)) وأدعى إلى استحضار صورته عند كل حديث عن الحبيب ولهذا وصفت المرأة . الزوج . بالسكن كما جاء في القرآن الكريم قل سبحانه وتعالى ((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا)) [٢٠] لأنها ملازمة للرجل في حِلّه وترحاله. أما التعبير عن وجود الطلل غير المحسوس في الوجدان والتأكيد على حضوره الباقي فنستطيع أن نلتمس له شواهد عديدة ومنها قول زهير المذكور:

قف بالديار التي لم يعفها قِدمُ بلى وغيرّها الأرواح والديمُ

فذكر أنها باقية في حضورها الوجداني وإن كانت عافية في وجودها المكاني وهذا عين ما ذهب إليه المتنبي بعد قرون عديدة في قوله: [٢١]

لك يا منازل في القلوب منازلُ أقفرت أنت وهنّ منك اواهلُ

وهكذا يبقى لمكان الديار وأهلها الظاعنين عنها حضورٌ دائمٌ ويدل على حقيقة وجدانية راسخة تتحدى مر الزمان ولا تستطيع عوامل الطبيعة أن تعفّي عليها فتسلبها هذا البقاء .وكأن الشاعر الجاهلي في كل ما تقدم يكشف لنا عن سر ارتباطه بالديار التي لم تعد مكاناً يسهل العثور على بديل لها والتعويض عن وجودها المكاني بأي بقعة من بقاع الأرض الواسعة بل ان هذا الارتباط بالأرض مرده إلى تذكر الشاعر لحقائق نفسه التي خلفّها في ذلك العهد الماضي.الوجود الذاهب للشاعر نفسه ومن ثم يؤول الحديث عن الديار إلى الحديث عن الذات والتأكيد على حضورها في كل حين .

ب . الإحساس بالقبيلة:

من المعروف أن القبيلة هي النظام السائد المتعارف عليه عند العرب قبل الإسلام وهي الكيان الذي يربط الأفراد فيما بينهم برباط أساسه الدم والقرابة وعلى الفرد ان يفي بكل ما عليه من حقوق القبيلة وعلى القبيلة مثل ذلك وليس من الهين التفريط بفردٍ واحد من افراد القبيلة لأنه عمادها وسندها وسورها الحامي ذمارها عند التعرض للأخطار او العدوان الخارجي. وفي مثل هذا النظام القبلي ((لم يكن بد من محالفات بين الفرد والفرد وبين الفرد والقبيلة وبين القبيلة والقبيلة ،لتعزيز القوة وتقوية الحماية وذلك لكثرة الحروب وتوجس الاغارات، واعتمادهم على أنفسهم في حماية العرض والمال والروح)) [٢٢] .وقد يبلغ الشعور بالانتماء إلى القبيلة حد العمى فينساق وراء قبليته انسياق الأعمى الذي لا يملك سوى ان يرفع راية الانتصار لقبيلته منصفة كانت في موقفها ام جائرة منطلقاً من مبدأ جاهلي ((انصر أخاك ظالماً أومظلوماً)) [٢٣] . وفي هذا الانسياق يذوب الفرد في القبيلة حتى لا يملك موقفاً فردياً وقد يصرّح بضلاله معترفاً بغية أن لا يخسر انتماءه إلى قبيلته الضالة وفي ذلك يقول دريد ابن الصمة : [٢٤]

وما أنا إلا من غزية إنْ غَوَتْ غويتُ وانْ ترشدْ غزيةُ ارشدِ

إنّ طغيان الإحساس بالجماعة لم يَدعْ للشاعر فرصة الانفراد حتى ولو كان مصيباً في موقفه المخالف لموقف قبيلته فيكتفي بالنصيحة والإشفاق على مصير قومه من دونما تحلل من قيود الأعراف التي كانت تشجع على قوة الجماعة في ذلك المجتمع القائم على التناحر والغزو.اما حين يتشتت رأي الجماعة فتضعف وتُقهر [٢٥] فالعرف الجاهلي . اذن . يقتضي قبول الخطأ وإيثاره مع الجماعة على الصواب مع الفرد وهذه سُنة جاهلية عمياء كانت(تؤرق الشاعر دريد) [٢٦] . وقد تلجأ القبيلة إلى خلع بعض أفرادها انْ أخلّوا بشروط الانتماء إليها حتى إذا أحسوا بكيان يستطيع النهوض بنفسه والاستغناء عن القبيلة تَشكّلَ مجتمع جديد قائم على الصعلكة ومن ثم يخبو الشعور بالانتماء إلى القبيلة ويحل محله شعور يناقضه ويقف على الضد منه ((فكان من الطبيعي ان يفقدوا . أي الصعاليك . إيمانهم بكل معاني القبيلة، وان يكفروا بتلك العصبية القبلية التي لم يعد لها قيمة في حياتهم ،بل قد ينقلبون انقلاباً تاماً فتصبح صلتهم بقبائلهم صلة عداوة .....)) [٢٧].على انه قد يحدث احياناً ان تغمط القبيلة

بحقوق أفرادها ولا تنزلهم المنزلة التي تليق بحسن بلائهم ووفائهم للقبيلة فماذا يكون رد فعل الفرد أمام هذا الغمط ؟

قليلٌ من الشعراء الفرسان تعرضوا لمثل هذا الإجحاف من دون سبب سوى أن الله– سبحانه– خلقهم وجبلهم على صفات ليست مقبولة في الأعراف الجاهلية فاتُّخِذ منها مواقف سلبية مجحفة تظهر آثارها على الفرد انْ سلباً او ايجاباً ، وهذا ما حدث فعلاً لعنترة العبسي الذي أَنِفَ أَبوه أن ينسبه إلى القبيلة لسواد جلده فما كان من الشاعر الفارس الا ان تعمق شعوره بالانتماء إلى القبيلة واظهر الموقف الايجابي من قومه : [٢٨]

وأُظهر نُصح قومٍ ضيعوني وإن خانت قلوبهم الودادا

ومع كل ما يلقى بين قومه من ضروب الاذى والاساءة لا ينفك ينجد قبيلته في كل موقف صعب تمر به ويفخر بها ويؤثر أن يبذل نفسه في سبيلها ويمدحها في حالاته جميعاً يقول: [٢٩]

إن يلحقوا أكررْ وان يستلحموا أشددْ وان يُلفَوْا بضنكٍ أنزلِ

ويبقى يحميهم حتى اخر نَفَس من حياته: [٣٠]

واني لأحمي الجار من كل ذلةٍ وافرح بالضيف المقيم وابهجُ

وأحمي حمى قومي على طول مدتي إلى أن يروني في اللفائف أُدرَجُ

ولقد يحدث للشاعر ان يسيء قومه فهمه ويختلف معهم في بعض المواقف فيُمنى بالجفاء وبالقطيعة ولكنه لا يتخذ الموقف نفسه من قومه فنراه يعبر عن إحساسه بالانتماء إليهم ويشكو ظلمهم ومع ذلك كله يؤثر الإبقاء عليهم ويعاهد نفسه للدفاع عنهم والوقوف معهم عند مهمات الأمور بل يظهر بمظهر الإقدام والغيرة عندما يقتضي موقف ما ينكص فيه الأبطال وتتراخى العزائم وهذا ما حدث لطرفة بن العبد القائل: [٣١]

وقرّبت بالقربى وجدك انني متى يك امر للنكيشة اشهدِ

وان ادعَ للجلّى اكن من حماتها وان يأتك الاعداء بالجحد اجَحدِ

وفي كل حال ترى العربي الجاهلي ينزع إلى قومه ويفخر بانتمائه إليهم حتى إذا نزلت نازلة جعل نفسه وماله وقاءً لهم كما فعل حاتم مع قومه اذ يقول: [٣٢]

سيكفي ابنتاي المجد سعد ابن حشرجٍ واحمل عنكم كل ما حلَ من ازْلي

وينبغي لذي الفضل والسعة من أفراد القبيلة أن لا يبخل بفضله ويحتكر ما عنده فلا يصل نفعه إليهم، ومن يفعل ذلك فسوف يكون مصيره النفي والاستغناء عنه: [٣٣]

ومن يك ذا فضلٍ فيبخل بفضله على قومه يُستغنَ عنه ويُذمِ

اما حياة الفرد بين قومٍ غير قومه وفي وطن غير وطنه فهي حياة يكتنفها الذل والهوان وشعور دائم بالوحشة ولا يفرق بعضهم بينها وبين الموت لما فيها من فقدٍ للشعور بالانتماء وغياب الإحساس

الجماعي الذي ينعم به بين قومه ووطنه.وفي هذا المعنى يتجلى بوضوح مفهوم الوطن بمعنى الانتماء الوجداني لا المكاني إذ اكد عليه قائلهم ((إذا كنت في غير قومك فلا تنسَ نصيبك من الذل)) [٣٤].

فالشاعر الجاهلي . اذن . وهو ينطلق في كل هذه المعاني من منطلق الانتماء إلى الوطن يحس إحساساً عميقاً بضرورة الوحدة والتأليف بين قلوب الأفراد واجتماع كلمتهم وفي هذا الإحساس وفاءٌ لحق من الحقوق الاجتماعية الطبيعية من دون أن يصرّح بأسباب هذا الانتماء إلى قومه ومن دون أن يفسر هذا الانتماء الوجداني الذي ان نظرْتَ إليه متأملاً وجدته من ضرورات حياة العربي ومن شروط عيشه وبقائه .وواقع الشعر العربي القديم يحفل بالمعاني الوجدانية التي ترقى بالشعور إلى سماء الروح الصافية وترسم جواً من التسامي والشفافية يدل على ذلك مواقف كثيرة مأثورة ...ألم يكن يرى العربي الجاهلي ان الحديث مع الضيف من القرى ؟او لم يتحدثْ عن تجربته الوجدانية في الصداقة فيقول : [٣٥]

فلا اترك الإخوان ما عشت للردى كما انه لا يترك الماءَ شاربه

او لم يؤثر المبيت طاوياً يكابد مضض الجوع على ان لا تمتد يده إلى ما ليس له به حق ؟! [٣٦]

ولقد أبيت على الطوى واظله حتى أنال به كريم المأكلِ

اولم يَعَفْ الشهْدَ ويُؤثر الحنظل عليه ان كان في الأول ذلة ومهانة وفي الثاني عزة وكرامة ؟!.

أولم يُعْنَ بحياة الذكر الجميل فيحتقر معها كل معنىً للبخل والاحتكار ؟!يقول حاتم: [٣٧]

أماويُّ إن المال غادٍ ورائحُ ويبقى من المال الأحاديث والذكرُ

أولم يكن في كل ذلك وغيره كثير قد ملأ بطون الكتب . دليل على ان الشاعر الجاهلي لم يكن ليحب وطنه لأن فيه استجابةً لمتطلبات جسده دون روحه ؟!.بل وجد في وطنه ما هو أسمى وأبقى فراح يتغنى بالمعاني الأخلاقية السامية التي تمجده وتباركه حتى إذا أحس بالفراغ منها في قومه آثر وطناً آخر وأبدل بهم قوماً آخرين يحيا بينهم في ظلال حياةٍ كريمة على ما فيها من احتمال الصعاب والصبر الطويل كضريبة يدفعها الحر الكريم عن الأذى .وهذا ما فعله الشنفري القائل :[٣٨]

وفي الأرض منأىً للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القِلى متعزّلُ

ولي دونكم اهلون سيْدٌ عملّسُ وأَرقطُ زهلولُ وعرفاء جَيْألُ

اما الوطن بين القوم والقبيلة في نظر الشاعر الجاهلي فهي الحياة الكريمة التي يعز بها ويُكرّم وعلى شرطها يكون صالحاً ويقوم فيه عيشه وبقاؤه.من اجل ذلك كله كان حب الجاهلي لقبيلته أي لوطنه حباً صادقاً فهو يحب حباً صادقاً ويكره كرهاً صادقاً وكم من فارس قُتل دفاعاً عن بني قومه.ولما لم تكن الحياة العربية لتستقر على حال فيشعر الفرد في ظلها بسكون الخاطر واطمئنان البال راح الشاعر الجاهلي ، كما يبدو في شعره، مُشمّراً عن ساق العزم لمواجهة الأخطار المحدقة وأيام العرب خير دليل على هذا التقلب وما يتبعه من حذر وحيطة ويقظة واستعداد دائم وما يصحبه للثارات التي طالما خلّفت

وراءها عالماً مثقلاً بالجراح والنواح ((وبيئتهم الطبيعية والاجتماعية مؤرثة لهذه الحروب فهم يتنازعون على المرعى يسيمون فيه أنعامهم ،وعلى المنهل يُطفئون به ظمأهم في بلاد شحيحة بالكلأ صنينة بالماء .....على ان بعض الحروب كان رغبة في السلب والغارة لأن أرزاقهم في رماحهم ،ومعاشهم في أيدي غيرهم ونجد تصوير ذلك في أبيات للقطامي . شاعر مخضرم . إذ يتحدث عن الخيل والخيالة وديدنهم في السلب والغارة)) [٣٩].

وفي ظل هذا التقلب الذي يسببه هذا الاضطراب والتحول في حياة الجاهلي يتعمق شعور الفرد بالقبيلة من جهة وشعور الفرد بالفرد من جهة اخرى حتى إذا أُصيب الشاعر بقبيلته او بأحد أفرادها عظم الخطب عليه وراح يصطبغ شعره بالحزن والأسى .والموروث الجاهلي من شعر الرثاء يدل دلالة واضحة على ذلك .فكانت الحروب الدامية وما ينتج عنها من فقد للأرواح والأوطان مسببة مسحة الحزن على أدبهم وأول ما يطالعنا في سلسلة المراثي الجاهلية الكثيرة من أمثلة شعرية ملآى بالعواطف الحزينة والبكاء المر الذي لا يكفكف دمعه ولا تنقطع عبراته ،هذا النص الشعري من قصيدة للمهلهل يرثي فيها أخاه كليب : [٤٠]

أهـــاج قـــذاء عينـــي الادّكـــارُ ... هـــدوءاً فالـــدموع لهـــا نهمـــارُ
وصـــار الليـــل مشـــتملاً علينـــا ... كـــأن الليـــل لـــيس لـــه نهـــارُ
وبـــت أراقـــب الجـــوزاء حتـــى ... تقـــارب مـــن أوائلهـــا انحـــدارُ
أُصـــرّف مقلتـــي فـــي اثـــر قـــومٍ ... تباينـــت الـــبلاد بهـــم فغـــاروا
وأبكـــي والنجـــوم مطلّعـــاتٌ ... كـــأنْ لـــم تحوهـــا عينـــي بحـــارُ
علـــى مـــن لـــو نعيـــت وكـــان حيـــاً ... لقـــاد الخيـــل يحجبهـــا الغبـــارُ
دعوتـــك يـــا كليـــبُ فلـــم تجبنـــي ... وكيـــف يجيبنـــي البلـــد القفـــارُ
أبـــت عينـــاي بعـــدك ان تكفـــا ... كـــأن غضـــا القتـــاد لهـــا شِـــفارُ

وهكذا تُسهم أيام لعرب في تعميق إحساس الشاعر بالفقد وتخلق في نفسه انطباعاً لعالم ينوء بالأحزان فينعكس ذلك ادباً وتعبيراً مفعماً بالعواطف الحزينة والانفعالات الحارة.

ملخص البحث

كانت دراسة الوطن عند الشاعر العربي الجاهلي في هذا البحث الصغير مُنصّبةً على عنصرين يمثلان حقيقة الوطن للإنسان العربي الجاهلي هما : الأرض والقبيلة ، فكان للأرض حضور دائم في شعره وقد أسهب في التعبير عنها وحرص على استجلاء كل ما يتصل بها ليكشف بذلك عن عمق إحساسه بها معّرفاً بكل ما أمكنه من التعريف بجزيئاتها ، وكانت القبيلة هي الوجود الذي يرى فيها الشاعر نفسه ويعدها المأوى الذي يأوي إليه والظل الذي يستظل به ، ولهذا فهو يرى نفسه مُلزماً بالمحافظة على كيانها والتغني بأمجادها .

أما تعبيره عن انتمائه إلى الأرض فقد دلّ عليه تأكيده على الوقوف على أطلالها – الوطن المفقود – وبكائها والتعريف بمواقع سكناه فيها موقعاً موقعاً ...

وأما القبيلة فقد كان حرصه على الاعتزاز بالانتماء إليها جعله يؤثر نصرتها وان كانت ظالمة على التخلي عنها !! كما فعل دريد وعنترة .

ABSTRACT

In this study , the researcher focused on the two elements of the land and the tribe to examine the concept of ' nation' for the pre- lslamic Arabic poet. Land was always present in his poems and he expressed it in an elaborated way , defined all its segments and highlighted all that was related to it . By doing so , he disclosed his deep feelings towards it.

That poet found his self in the tribe which was his shelter and the shade that protected him. Tgerefore, he felt committed to keep it safe and to chant its glory. He expressed his belonging to the land by his dedication to describe its remains (the lost nation) , weeping on those ruins and picturing his dwelling there site by site.

He was proud of his tribe in a way that he backed and supported it even if it was wrongful and never let it down as in the case of the poets Duraid and Antara.

الهوامش

١. الصحاح ٢٢١٥/٦ وانظر لسان العرب _ وطن ٤١٥/٣.
٢. راجع ديوان طرفه ص١٢ ،امرئ القيس ص١٤٤ وعنترة ص١٩٤،٥٦.
٣. شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ١٩٠/٨.
٤. من أقوال (لابروبير) انظر بين علي والثورة لفرنسية ص١٢١.
٥. ديوان المعاني ص٨٧ ومطالع البدور ٢٩٢/٢ .
٦. مطالع البدور ٢٩٢/٢.
٧. ديوان امرئ القيس ص٥٠، والصحيح (المعيلِ) بدلاً من(المعولِ).
٨. المصدر نفسه ص٨١.
٩. ديوان عنترة ص١٥١
١٠. ديوان امرئ القيس ص٨١
١١. شرح ديوان زهير. ص٥٦
١٢. تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ص١٥٢ – ١٥٣.
١٣. شرح المعلقات السبع ص٦٠.
١٤. ديوان الطفيل ص١١١.
١٥. شرح .ديوان زهير ص ٩٨
١٦. ديوان امرئ القيس ص٤٦٩-٤٧٠، البيت الأول غير موزون ولعله :طال عهداً به الطيل .
١٧. مقالات في الشعر الجاهلي ص١٥١
١٨. النقد الأدبي،سيد قطب ص٢١٠.
١٩. شرح المعلقات السبع. معلقة عنترة
٢٠. سورة الروم الآية ٢١.
٢١. العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب ج١ ص ٣٤٨
٢٢. الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص٢٨٥.
٢٣. مجمع الأمثال ١٢/١.
٢٤. جمهرة أشعار العرب ص١٢٢ .
٢٥. في النقد والأدب ص٤٣٨.
٢٦. المصدر السابق.
٢٧. الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ص١١٤.

٢٨. ديوان عنترة ص١٢٤.
٢٩. شعر عروة بن الورد العبسي ص٧٣.
٣٠. ديوان عنترة ص١١٢.
٣١. شرح المعلقات السبع ، معلقة طرفة بن العبد ص٧٨.
٣٢. ديوان حاتم ص١١٠
٣٣. شرح المعلقات السبع ص١٢٠.
٣٤. محاضرات الأدباء ٣٨٥/٢ .
٣٥. ديوان عروة ابن الورد ص١٥ .
٣٦. ديوان عنترة ص٥٧ .
٣٧. ديوان حاتم ص٧١ .
٣٨. أعجب العجب ص٣٧ – ص٣٩ .
٣٩. الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص٢٣٠ .
٤٠. أخبار المراقة وأشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام ص٢٧١.

المصادر والمراجع

٢- القرآن الكريم.

٣- الإمام علي صوت العدالة الإنسانية /بين علي والثورة الفرنسية ، جورج جرداق ، مكتبة الحياة ، لبنان - بيروت ،١٩٧٠م.

٤- أخبار المراقة وأشعارهم في الجاهلية ، حسن السندوبي ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٨هـ .

٥- أعجب العجب في شرح لامية العرب ، جارالله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ومعه شرح منسوب للمبرد ، الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ دار الوراقة .

٦- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق احمد عبدالغفور عطار دار العلم للملايين ، بيروت لبنان - ١٤٠٤ هـ /١٩٨٤م.

٧- تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ، القاهرة ١٣٨٤ هـ .

٨- جمهرة أشعار العرب ، أبو زيد محمد بن الخطاب القريشي ، تحقيق علي محمد البجاوي ، الطبعة الأولى ، دار النهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة - القاهرة - مصر .

٩- الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، د. احمد محمد الحوفي ، دار القلم ، بيروت - لبنان .

١٠-ديوان امرئ القيس- دار صادر- بيروت - لبنان ص ب ١٠ .

١١- ديوان امرئ القيس -تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم- الطبعة الرابعة،١٩٨٤م، دار المعارف - مصر.

١٢- ديوان طرفة بن العبد ، دار صادر للطباعة والنشر بيروت ١٣٨٠هـ ١٩٦١م .

١٣- ديوان عنترة - اشرف على تصحيحه إبراهيم الزين دار النجاح ودار الفكر ، بيروت - لبنان .

١٤- ديوان الطفيل الغنوي ، تحقيق محمد عبدالقادر احمد ، دار الكتاب الجديد احمد ، دار الكتاب ،الطبعة الأولى ١٩٦٨م مطابع إخوان معتوق ، بيروت - لبنان .

١٥-ديوان المعاني ، العسكري ، مكتبة القدس ، القاهرة الطبعة ١٣٥٢هـ .

١٦- ديوان حاتم الطائي ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م .

١٧- شرح المعلقات السبع - الزوزني - دار صادر - الطبعة الأولى - بيروت - لبنان سنة ١٩٥٨م ، الطبعة الثانية ٢٠٠٢م .

١٨- شرح نهج البلاغة ، شرح عز الدين ابن حامد عبدالحميد بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحديد ، دار الكتب العربية الكبرى بمصر د.ت .
١٩- شرح ديوان زهير ، صنعة ابي العباس احمد بن يحيى بن زسد الشيباني -الدار القومية للطباعة والنشر .
٢٠- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، د. يوسف خلفاوي دار المعارف ، مصر القاهرة ١٩٥٩م .
٢١- شعر عروة بن الورد العبسي ، صنعة أبي يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت ت ٢٤٤هـ تحقيق د. محمد فؤاد نعناع ، مطبعة الخانجي ص.ب / ١٣٧٥ بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ -١٩٩٥ م .
٢٢- العرف الطيب في ديوان ابي الطيب – ناصيف اليازجي ،دار صادر، بيروت ، لبنان١٤١٨هـ /١٩٩٨م.
٢٣- في النقد والأدب ، ايليا حاوي ، دار الكتاب اللبناني بيروت – ط٤ ، مقدمات جمالية
٢٤- مجمع الأمثال ، احمد بن محمد النيسابوري الميداني ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، مطبعة السعادة ، مصر .
٢٥- مطالع البدور في منازل السرور، علاء الدين الغزولي ، مطبعة الوطن .
٢٦- مقالات في الشعر الجاهلي – يوسف يوسف ، دار الحقائق ، بيروت – لبنان .
٢٧- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء ، أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصفهاني ، مكتبة الحياة ١٩٦١ م .
٢٨-النقد الأدبي – سيد قطب – دار الفكر العربي – الطبعة الثالثة ١٩٥٩ م .

الفهرست

ت	الموضوع	الصفحة
1-	المقدمة	2
2-	ما الوطن ؟	3
3-	الإحساس بالأرض	4
4-	الإحساس بالقبيلة	10
5-	ملخص البحث	17
6-	الهوامش	18
7-	المصادر والمراجع	20
8-	الفهرست	22